ملامح الصراع في شعر ابن الجزار السرقسطي (ت 480 هـ)

سعيد بن مسفر المالكي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبدالعزيز،
جدة، المملكة العربية السعودية

الملخص

يُعد نتاج ابن الجزار الشعري من الموضوعات التي لم تتعرض لها الدراسات الأندلسية الحديثة كثيراً، إذ قلما نجد دراسة تهدف إلى الكشف عن جوانب الإبداع في هذا النتاج الشعري، كما أن ديوان ابن الجزار لم يحظَ باهتمام الباحثين لمناقشة القضايا المختلفة والأبعاد المتعددة التي اشتمل عليها الديوان فحوى ومضموناً، ولذا كان القيام بهذا البحث الذي يتناول جانب الصراع في شعر ابن الجزار محوراً مهماً في دراسة أدبه وأدب العصر الذي عاش فيه، وسوف يتناول هذا البحث الكشف عن ملامح الصراع في شعر ابن الجزار، بوصفه من أهم الأبعاد الموضوعية في شعره، وقد جاء البحث في مقدمة وخاتمة ومحورين تناول الأول بيان ملامح الصراع الذاتي في شعره، في حين اهتم المحور الثاني بتوضيح ملامح الصراع مع الآخر، إضافة إلى مناقشة أبرز العوامل وأهم الأسباب التي أدت إلى وجود ظاهرة الصراع في شعره.

وقد أثبت البحث ضمن نتائجه أن الصراع بجانبيه قد مثل ظاهرة في شعر ابن الجزار، وأن هناك مجموعة من العوامل الشخصية والمجتمعية والفكرية والسياسية أسهمت في حضور ظاهرة الصراع في شعره، كما توصل البحث – أيضاً – إلى الكشف عن جوانب جديدة من حياة الشاعر وبعضٍ من تفاصيلها.

الكلمات المفتاحية: ابن الجزار، السرقسطي، شعر، الصراع، ملامح.

المقدمة

الصراع سنة كونية ومكون جوهري في حياة البشر، يقوم على مجموعة مختلفة من البواعث والأسباب ما بين دينية وفكرية واجتماعية ونفسية وغير ذلك، والصراع في أبسط صوره لا يكون إلا بوجود ثنائية متضادة يدفع بعضها بعضاً، فالشر ضده الخير، والموت نقيضه الحياة، والحب يقابله الكره، فكل هذه الثنائيات المتضادة تتفاعل في الوجود لتشكل حالة مستمرة من الصراع الأبدي.

ومفهوم الصراع لا يقف عند هذه الحدود، بل إن له أبعاداً مختلفة تتغير وفقاً لطبيعة الحالة التي يعيشها الإنسان، والظروف التي يعاني منها، فلا يكاد يتجاوز مرحلة من مراحل حياته إلا ويواجه نوعاً جديداً وتحدياً آخر في صراعه الوجودي مع هذه الحياة، صراع يتراوح بين نوعين، هما: الصراع مع الذات والصراع مع الآخر.

والإنسان قد يدرك أن فلسفة الوجود قائمة على مبدأ الصراع ومنظور التدافع، فيتشكل لديه مفهومه الخاص حول الصراع وأبعاده المختلفة، فيبدأ في التعامل مع الكون المحيط به والبيئة التي يعيشها وفقاً لمكونات المفهوم الذي تشكل في عقله ووجدانه لطبيعة الصراع، وقد يظهر الأمر جلياً عندما يكون ذلك الإنسان شاعراً يرسم الوجود بتناقضاته المختلفة في لوحات شعرية وأبيات إبداعية.

إن الناظر لديوان ابن الجزار، بما تضمنه من قصائد ومقطعات، يجد أن هناك ملامح متعددة للصراع تختلف في نوعها ومظاهرها والعوامل التي تسببت في وجودها؛ لذا فإن هذا البحث يهدف إلى الكشف عن ملامح الصراع في شعر ابن الجزار وذلك من خلال محورين هما: الصراع مع الذات، الذي ظهرت ملامحه في قصائد متعددة قام ابن الجزار عبرها بتصوير صراع ذاته في عدد من الاتجاهات، أما المحور الثاني فهو: الصراع مع الآخر والذي سار كذلك في عدد من الاتجاهات وتسبب فيه مجموعة من العوامل والأحداث.

وأبو بكر يحيى بن محمد الجزار السرقسطي المتوفى عام 408هـ، يلقب بالجزار أو ابن الجزار انتساباً لمهنة الجزارة التي كان يمتهنها، من شعراء سرقسطة وأدبائها في المائة الخامسة، مدح ملوك بني هود ووزراءهم، لكنه ترك الشعر وعاد إلى مزاولة مهنة الجزارة، أما ديوانه فقد جمعه أحد أدباء الأندلس في القرن السادس، والذي تضمن مجموعة من أشعاره وموشحاته، كما أن بعض رسائله التي قام بإنشائها جاءت في كتابه (بادرة العصر وفائدة المصر).

والحق أنه هناك بعض الدراسات المتميزة التي سلطت عدستها نحو إبداع ابن الجزار السرقسطي

ودراسة شعره، وكانت في الواقع نافعة ومفيدة لهذا البحث، من أبرزها دراسة الأستاذ الدكتور منجد مصطفى بهجت التي حقق فيها ديوان ابن الجزار وقدم له بدراسة فنية وموضوعية لشعره، كما قام الدكتور العربي سالم الشريف بتناول الديوان تحقيقاً ودراسة، في حين قامت الأستاذة نجوان كمال السيد بتقديم دراسة شاملة بعنوان (الجزار السرقسطي: حياته وأدبه) في رسالة ماجستير بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة.

لكن في ظل وجود هذه الدراسات لنتاج ابن الجزار الشعري، تبقى الحاجة - في رأيي- قائمة لإجراء مزيد من الدراسات المتخصصة التي تهدف إلى الكشف عن مزيد من جوانب الإبداع في هذا النتاج الشعري، فمحتوى ديوان ابن الجزار يفرض على الباحثين المهتمين بمجال الدراسات الأدبية الأندلسية تكثيف مناقشة القضايا المختلفة والأبعاد المتعددة التي اشتمل عليها الديوان فحوى ومضموناً، ولذا فقد كان هذا الأمر- في نظري- باعثاً شخصياً مهماً للقيام بهذا البحث، الذي يتناول الكشف عن ملامح الصراع في شعر ابن الجزار، بوصفه أحد أهم الأبعاد الموضوعية في شعره.

أما عن منهج الدراسة التي ارتكز عليه البحث، فقد كان المنهج الموضوعاتي هو الأقرب لمعالجة النص الشعري، وذلك عبر قراءة تحليلية للأطر التعبيرية التي تتضمن الرؤى والأفكار والدلالات المتعلقة بملامح الصراع في تجربة ابن الجزار الشعرية.

ختاماً أرجو من الله العلي القدير أن أكون قد قدمت رؤية واضحة لملامح الصراع في شعر ابن الجزار السرقسطي، وأن يكون التوفيق قد حالفني في هذا البحث، فإن كان كذلك، فذلك فضل من الله ونعمة، وإن كان غير ذلك، فقد سعيت، فكما قيل: على المرء أن يسعى وليس عليه إدراك النجاح، فالتوفيق والنجاح من عند الله - سبحانه وتعالى.

المحور الأول: ملامح صراع الذات

يُعرّف علماء النفس الذات بأنها "إدراكات الفرد لنفسه، وهذه الإدراكات أو التصورات تتشكل من خلال خبرة الفرد ببيئته وفهمه لها بشكل خاص[1]"، ولذا فإن أغلب الأحداث في البيئة المحيطة للإنسان والتي تكون ملتصقة به بشكل مباشر تنعكس على ذاته التي تتفاعل مع تلك الأحداث وتتأثر بها، وقد يكون المبدع أكثر إنسان يترجم ردود فعل ذاته تجاه هذه الأحداث، فيعبر عن ذلك بشكل واضح في نتاجه الإبداعي، فالرسام تعكس لوحاته نظرته للعالم من حوله وتصور تفاعله الذاتي، والشاعر عبر أبياته وقصائده يصور رؤيته للوجود ممزوجة بمشاعره وأحاسيسه، سواء أكانت سلبية أم إيجابية الطابع.

لكن تلك المشاعر والأحاسيس ذات الطابع السلبي، تكون - في رأيي - أكثر وضوحاً وأثراً في نتاج الشاعر وإبداعه؛ لأنها تكون ناجمة بفعل معاناة حقيقية لذاته ومعايشة واقعية مرت بها، فالصراع الداخلي بين الشاعر و ذاته يمثل أحد عناصر التجربة الشعرية التي يتميز بها شاعر عن آخر، وهي تختلف في ملامحها ومظاهرها والبواعث الدافعة لها من شاعر لآخر، وفقاً لحجم الصراع الذي تقاسيه ذات الشاعر.

وابن الجزار السرقسطي من الشعراء الأندلسيين الذين ينقلون لنا ملامح متعددة لصور صراعه مع ذاته، إذ نجد ذات الشاعر تقاسي مجموعة من المؤثرات التي عصفت بحياته بفعل الواقع المؤلم الذي كان يعيشه ويعاني سطوته.

لقد منيت ذات ابن الجزار بالكثير من الإخفاقات المتتالية، بعد أن حاولت التعلق بشمعة الأمل ومشعل الطموح، لكنها أدركت الواقع المرير الذي تواجهه في محيطها المليء بالانكسارات والعثرات، فأصبحت ذات ابن الجزار تقاسي جراء ذلك، فهي ترى غيرها قد أرضعته الحياة من ثديها المدرار وضنت عليه بذلك، وهو ما يُؤخذ على الشاعر في التفويض للقضاء والقدر، وسوف نجد عبر أبياته أوجهاً كثيرة في هذا السياق، لقد غدت ذات شاعرنا تموج في دائرة من صراع البقاء الذي تتجمع فيها متناقضات تتصاعد فيه الغاية التي تسمو إليها ذاته، وتصل بها كذلك إلى قاع محبط ومقيد بواقع تجاذبات الحياة وقواعد صراع البقاء، التي لا تتجه بوصلتها إلا لمن يملك زمام

(1) Shavelson, R. J. Hubner, J. J. and Stanton, G.C. 1976. Self concept validation of construct interpretations. Review of Educational Research. 46 (3): 407-441.

الأمر فيها، يقول ابن الجزار معبراً عن ذلك:

يَسعى الحَريصُ وَرزقه مَقسومُ
وَالحرصُ مَرتعُه الخَصيب وَخيمُ
لَو نالَ بِالحَزم امرؤ حَظ الغنى
ماتَ الفَتى الكَسلانُ وَهُوَ عَديمُ
سَبقَ القَضاء بِكُل ما هُوَ كائن
فمن النُهى التَفويضُ وَالتَسليمُ
قَد قَسَّمَ الأَرزاق بَينَ عِباده
رَبٌ رَؤوف بِالعِباد رَحيمُ
حرص الفَتى سَببٌ إِلى حِرمانهِ
وَطلابُهُ ما لَيسَ يُدرك شومُ
ما بال دُنياي الدَنية لَم تُقم
أَودي أَكُلٌّ مفوهٍ مَحرومُ؟!
نُوديت واحدها وَرُخمتِ المُنى
بئس النِداء وَراءه التَرخيمُ
قَدرٌ عن الآمال أَصبَح مُقعدي
وَمِن المقادِر مُقعَدٌ وَمُقيمُ
لا تَجزَعي يا نَفسُ إِنْ خَطبٌ عَدا
فَالحُر يَعثر تارَةً وَيَقومُ
لَيسَ العَجيب بِأن غَيري راضِعٌ
ثَديَ المُراد وَأَنَّني مَفطومُ
فَكَذا الزَّمان بِأَهلِهِ مُتَقَلب
لا البُؤسُ فيهِ وَلا النَعيمُ يَدومُ[1]

لقد أطلق ابن الجزار، عبر الأبيات السابقة، صرخات ذاته، في زفرات متتالية من الصراع الداخلي الذي يعيشه الشاعر، فهو يبدأ أبياته بحالة من الرضا بالقدر الإلهي الذي لا يملك الإنسان أمامه سوى التسليم، لكن ذاته، بعد ذلك، تنتفض في وجه هذه الدنيا التي لم تعطه حقه بالرغم من الإمكانات التي لديه، فيقول:

ما بال دُنياي الدَنية لَم تُقم
أَودي أَكُلٌّ مَفوهٍ مَحروم؟!

ثم يواصل ابن الجزار في الأبيات التي تلي ذلك وصف ملامح صراع ذاته من أجل البقاء والأخذ بحظها في هذا الكون الذي يرى بأنه قلب له ظهر المجن، وأهدى غيره سبل الغنى وأسباب الثراء، وهو كما أشرنا من المآخذ على الشاعر في تبرمه وتسخطه من تصاريف الحياة، وعدم التسليم لأمر الله – سبحانه وتعالى، فيضمن تلك الأبيات خطاباً وجهه إلى ذاته ونفسه لكي يهدئ من روعها، ويبعث الأمل داخلها، قائلاً:

لا تَجزَعي يا نَفس إِنْ خَطبٌ عَدا
فَالحُر يَعثر تارَةً وَيَقومُ
لَيسَ العَجيب بِأن غَيري راضِعٌ
ثَديَ المُراد وَأَنَّني مَفطومُ
فَكَذا الزَمان بِأَهلِهِ مُتَقلب
لا البُؤسُ فيهِ وَلا النَعيمُ يَدومُ

حاول ابن الجزار مسايرة الدنيا في تلونها وتقلب أحوالها، لكنه لم يستطع أن ينال حظه منها، إذ أعيته الحيل، ونفذت ذخيرته، ولم يستطع فعل شيء، يقول في ذلك:

إِني تَلوَّنت للدُنيا تَلوُّنها
وَاحتلتُ دَهري فَما أَجدتني الحيلُ
وَلَيسَ يَحظى بِسَعد المُشتَري أَبَداً مَن
لَيسَ مُنتَقِلاً عَن بُرجِهِ زحلُ[2]

لقد ظل الصراع بين ابن الجزار وذاته مستمراً، فذاته تتوق إلى نيل المنى وبلوغ المعالي، لكن الواقع اعتاد أن يدير له ظهره، ويقف حائلاً أمام تحقيق تطلعات ذاته وبلوغ أمانيها، فيصف ذلك قائلاً:

وَأَطمَحُ للمعالي وَاللَيالي
عَما تقصّرُ باع همتيَ الطُموحِ
وَقَد قَصُرت خُطا الخطيِّ
أُؤمله فَكَيف خُطا المَديحِ[3]

إن ذات ابن الجزار ترى بأن صراعها الداخلي، وعدم قدرتها على نيل غاياتها وطموحاتها بسبب صروف الليالي التي حالت دون تحقيق ذلك، لذا فقد ظلت تعاني وتقاسي وتشكو واقعها المرير، فلم تجد ذات ابن الجزار من يقاسمها تلك الهموم التي أورثتها ذلاً ومهانة، حتى تمنت الموت ورأت فيه خلاصاً أبدياً وعزاً لمكانتها التي نال الزمان منها وحط من قدرها، يقول معبراً عن ذلك:

زَمان أَقصَرُ الأَيام فيهِ
كَأَطولِ ما حَكوا عَن عُمر نوحِ

(1) السرقسطي، أبو بكر يحيى ابن الحزار، 2008م، ديوان ابن الجزار (روضة المَحاسن وعمدة المُحاسن)، دراسة وتحقيق: منجد مصطفى بهجت، ط1، عالم الكتب الحديث، الأردن، ص 134. اعتمد البحث على هذا الديوان.

(2) ديوان ابن الجزار، ص 127.

(3) ديوان ابن الجزار، ص 129.

يَشيب لهوله الولدان ذُعراً
وَيحسد حَيُّه مَن في الضَريح
لَقَد شمل الأَذى وَالذُعر حَتّى
يَهز الطودَ مِنا كُلُّ ريحِ
فَما أَشكو لِمَن أَشكوه إلا
كَما يَشكو الصَحيح إِلى الجَريحِ
وَلا خَلقٌ يُقاسمني هُمومي
فَأشكوهن شَكوى مُستَريح
فَزُرْ يا موتُ أَو يا نَفسُ فيضي
وَإِلا تَعتَدي للموت روحي
إِذا ما العَيشُ قادَ إِلَيك ذُلاً
فَإِنَ العِزَّ في المَوت المُريحِ[1]

لقد رأينا في الملمح السابق أن ابن الجزار عاش صراعاً ذاتياً من أجل البقاء، وقد كان يعبر عن ذلك بإيماءات تشير إلى أن ذاته قد اشتعلت ألماً وحسرة على الدنيا التي أعرضت عنه وأوصدت الأبواب في وجهه، وهو أمر- في رأيي- يتنافى مع مبدأ التسليم بالقضاء والقدر، لكن جانب الصراع الذاتي يشتد وضوحاً في شعر ابن الجزار عندما تظهر حالة الفقر التي كان يعيشها وسعيه الدؤوب للبحث عن المال، وللأسف لم تأتِ المصادر على ترجمة موسعة لتفاصيل حياة ابن الجزار، فقد أورد له ابن سعيد في كتابه (المغرب) بأنه «كان في دكان يبيع اللحم فتعلقت نفسه بقول الشعر...»[2]، وكذلك فعل ابن بسام في (الذخيرة) والمقري في (نفح الطيب) والتجيبي في (زاد المسافر)، إذ لم يستفيضوا في ترجمة ابن الجزار[3].

غير أن شعر ابن الجزار يوضح بجلاء معاناته مع الفقر وسعيه الحثيث للتخلص من هذا الكابوس الذي حول حياته إلى شقاء مستمر وصراع متواصل من أجل أن ينعم بالحد الأدنى من كفاف العيش، فقد أورد أبياتاً توضح حالة الفقر التي كان عليها والده الذي عجز عن سداد خراج الأرض التي قام باكترائها، مشيراً إلى أنه ورث الفقر عن والده واقتفى أثره في ذلك، فيقول:

يا أَبا جَعفرٍ لَعاً مِن عِثار
وَغَياثاً فَما يُقرُّ قَراري
سَيدي اسمع لعبدك القنّ يحيى
خَبَراً مُضحكاً مِن الأَخبارِ
كانَ لي والدٌ وَكان لعَمري
في بَني العصر بِالفلاحة داري
ناقصَ الرأي تاجرَ البر وَالبحـ
ـر وناهيك فارِسٌ في التجارِ
مثل ما سمي اللديغ سَليماً
وَأَنا بَعده عَلى ذاك جارِ
وَكَذا يَسلك النَجيب وَيَقفو
نَهجَ آبائه عَلى آثارِ[4]

وقصائده، وربما مثل ذلك محوراً ومنطلقاً لبنية الصراع الذاتي عند ابن الجزار، على «اعتبار أن المال سبب مهم من أسباب الرضا الداخلي والهدوء النفسي المطلق وسكون المطالب الداخلية»[5] التي لا شك أن الفقر يؤجج حضورها وإلحاحها في ذات الإنسان فتصبح مصدر ألم ومبعث أسى، وقد يراها أعداء ذلك الفقير مثلباً وعاراً مثلما أشار ابن الجزار في قوله:

وَلَو ابتَليت وَعَلَّ ذَلِكَ كائنٌ
بِالفَقر ما عيَّرت ذا استجداءِ
وَالأَنبياءُ المُرسَلون استَطعَموا
وَبُلوا بِداء الفَقر كُلَّ بَلاء
أَولَيسَ موسى قَد تَوَخى قَريَةً
مُستَطعِماً فَأَبَت بِكُلِ إباء
لا عارَ يَلحَق ساعياً في عيشه
ما لَم يجئ في سَعيه بخناء[6]

ولابن الجزار أبيات تشير إلى غمرة الصراع التي تعيش فيها ذاته الوثابة والمتطلعة إلى اكتساب المال منطلقاً من رغبة ملحة لمواجهة شبح الفقر

(1) ديوان ابن الجزار، ص 129 - 130.
(2) الأندلسي، أبو الحسن نور الدين بن علي، المُغرب في حلى المغرب، 1993م، تحقيق : شوقي ضيف، ط4، دار المعارف، القاهرة، ج2، ص444.
(3) انظر: 1. الشنتريني، أبو الحسن علي بن بسام، 1997م، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، القسم الثالث، المجلد الثاني، ص905-907.
2. المقري، أبو العباس أحمد بن محمد، 1988م، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت ،ج4، ص 152.
3. التجيبي، أبو بحر صفوان بن إدريس، 1980م، زاد المسافر وغرة الأدب السافر، تحقيق: عبدالقادر محداد، دار الرائد، بيروت، ص140.
(4) ديوان ابن الجزار، ص 142.
(5) المناعي، مبروك، 1998م، الشعر والمال: بحث في آليات الإبداع الشعري عند العرب من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث، ط1، منشورات كلية الآداب منوبة ودار الغرب الإسلامي، تونس، بيروت، ص384.
(6) ديوان ابن الجزار، ص 113.

والمخاطرة بالنفس إن تطلب الأمر للفرار من هذا الكابوس المخيف، فالمال الذي تكرر ذكره في هذه الأبيات كان في نظر ابن الجزار كل شيء، فهو يرى أنه الذي يوصلك إلى مرتبة الشرف ومنازل العلا ومراتب المجد، فحيث يكون المال فإن جميع الرغائب تبدو سهلة المنال، يقول واصفاً ذلك:

يُعد شَريفَ القَومِ ذو المال لا الَّذي
قَد اكْدى وَإِن كُانتْ عُلاً وَمَناسِبُ
وَبِالأَصغَرين المَرءُ كانَ مُعظَماً
وَما أَصغراه اليَوم إِلا المَكاسبُ
فَكُن جامِعاً لِلمال مُقتَنياً لَهُ
يَكُن لَكَ ذكرٌ في العُلا وَمَراتِبُ
وَمَن طَلَبَ الدُنيا بِغَيرِ دَراهِم
وَلا هِمَةٍ تَبعدٌ عَلَيهِ المَطالبُ
فَهوّن عَلَيكَ الهَول في جَنبِ جَمعِها
فَحَيث يَكون المالُ ثَمَّ الرَغائبُ
وَمَن لَم يُخاطر في الجَسيم بِنَفسِهِ
يَعش مكدياً وَالفَقر بئس المُصاحبُ
فَعش مكدياً إِن شئتَ أَو عش مُملكاً
فَلَيسَ بِغَيرِ المال تَدنو المآدبُ[1]

إن حالة الفقر التي عاشها ابن الجزار دفعت به إلى أن يستجدي بشعره في القصائد المدحية التي وجهها للأمراء والأعيان والوجهاء، فيذكر بأن حاكم المرية زهير العامري، كان مصدراً للعطاء الذي خفف عليه قسوة الدنيا وشحها نحوه، وذلك في قوله:

أَنتَ الَّذي أَنعشتني بِمَكارم
جَلَّت فَواضلها عَن الإحصاء
وكَسَوتَني حُلَلَ المبرة عِندَما
كَشَفتني الدُنيا فَكُنتَ غِطائي
فَلأكسوَنَّكَ مِن بَدائع مَنطِقي
حُلَلاً مُطَرَزَةً بتبر ثَناءِ
ولأَ شكرنَّكَ ما تَراخَت مُدَّتي
شُكر الرِياض لِواكف الأَنواءِ[2]

ولا شك أن المال كان المحرك الأول لابن الجزار لقول مدائحه، ولذا فإنه عمد في كثير من مدائحه إلى تحفيز الممدوح لإعطاء المال وعدم الضن به، وربما يتضح ذلك من قوله:

لَيسَ اِبتِذالُ المالِ يُفنيه وَلا
يُبقيهِ في كَف اللَئيم اللومُ
حَسبُ الكَريم محامِدٌ تَبقى لَهُ
وَكَفى اللَئيم بِأَنَّهُ مَذمومُ
لَما رَأَيت سَماءَ جودك زُيِّنَت
بِنُجوم جودٍ نوؤها مَسجومُ
أَرسَلتُ شَيطانَ اِفتِقاريَ سامِعاً
فَلَعله بِشهابها مَرجومُ[3]

وربما يكون هذا التعلق بالمال وتحفيز الممدوح على بذله وإعطائه مما اعتاد الشعراء عليه، غير أن اللافت للنظر هو نغمة الانكسار التي وردت في سياق بعض تلك المدائح، فظهرت فيها معاني الاستعطاف ودلالات الشكوى[4]، وليس ذلك – في نظري– سوى نتيجة للصراع الذاتي الذي يعاني منه ابن الجزار في ظل عدم قدرة ذاته على تحقيق مطالبها وتنفيذ رغباتها، فهي تتوق إلى التحرر من قيود الفقر والنفاذ إلى بوابة المال والثراء، فالصراع بين الرغبات الداخلية للإنسان والواقع الحياتي يؤدي إما إلى التمرد على المجتمع شراسة وتقويضاً لقيمه ومبادئه، وإما إلى النزعة والخضوع والانكسار والانزواء الاجتماعي، يقول ابن الجزار في إحدى مدائحه وقد وصل إلى درجة شديدة من الانكسار والانهزامية والإخفاق الذاتي:

فَأَنت أَحَق مسؤولٍ بِقَصدي
وَأَفضَلُ مَن قَرَعت عَلَيهِ بابه
وَقَد صَيَّرتُ ما أَشكو كِتاباً
فَصيّرْ ما تَجود بِهِ جَوابه
وَإِلا فُرضةٌ منكم عَسى أَن
يَقال لَقَد ملا يَحيى جِرابه
مِن الأَوشال لُجُّ البَحر طام
وَفَيضُ السَيل مِن نقط السَحابه
دَعاكَ دُعاء مُضطَرٍ غَريقٍ
وَيَرجو أَنّ دَعوته مُجابه[5]

ويقول في هذا السياق – أيضاً – أبياتاً يتوسل فيها إلى الوزير ابن حسداي أن يمن عليه بالفضل والمال، فقد كان مضطراً إلى ذلك لكي يحفزه على بذل المال له، فيقول:

(1) ديوان ابن الجزار، ص 71.
(2) ديوان ابن الجزار، ص 70.
(3) ديوان ابن الجزار، ص 135 - 136.
(4) فروخ، عمر، 1982م، تاريخ الأدب العربي، ط 4، دار العلم للملايين، بيروت، ج5، ص102.
(5) ديوان ابن الجزار، ص 135 - 136.

أَبـا الفَضـل لا ترتـب بفضلـك إننـي
حَفَزتـك وَالمُضطَـر يُعـذر في الحَفـز
إِذا كانَ للمـرء التَقَـدم رُتبَـةً
وَلا بُـدَ مِنـهُ فَالتَأَخُـرُ عَـن عَجـز
وَلا بُـدَ مِـن هَـز الكَريـم لِأَنَّنـي
رَأيت الحسام العَضب أمضى لَـدى الهَز
وَلَـو كانَ يَستَغني الكَريـم بِطَبعـه
عَن الهز لاستَغنى الجَواد عَن الهَمز[1]

لكـن ابـن الجـزار في أثنـاء هـذا الانكسـار النفسـي والـصراع الـذاتي لتحقيـق رغباتـه في اكتسـاب المـال يجـد أن الوقـت قـد تغـير، والظـروف في واقـع ذلـك الوقـت لم تعـد مواتيـة لبـذل المـال وإعطـاء المكرمـات، فـصرح بذلـك في قولـه:

أَروم الجـود مِـن زَمَـنٍ شَـحيح
وَصَعـبٌ الـروم تَوقيـف الجُمـوحِ[2]

لقـد أدرك ابـن الجـزار أن الجـود أصبـح في عـصره سراباً، ووجـوه مـن يقصدهـم قـد كسـاها التجهـم والكآبـة، ولـذا فإنـه في الأبيـات الآتيـة يحـاول بشـفافية ومصارحـة مخاطبـة ذاتـه التـي قهرهـا الارتهـان بواقـع يلفـه الإحبـاط وخيبـة الأمـل، فيقـول:

وَحَتّـى زُرت مُشـتاقاً حَميمـي
فَأَظهـرَ لي التَجَهُـم وَالكَآبـه
وَظَـن زِيـارَتي لِطُـلاب نيـل
فَنافـرني وَغَلـظ لي حِجابـه
وَذو الهِمَـم العَليـة مـن تجـافى
وَجَنَّـب كُل مَـن يَبغـى اِجتِنابـه[3]

وتكشـف إحـدى قصائـد ابـن الجـزار بـأن هنـاك ملمحـاً آخـر لصراعـه الـذاتي، وفصـل مختلـف لهـذا الجانـب عنـده، فقـد كان المـرض الـذي أصابـه هـو الباعـث عـلى اسـتمرار هـذا النـوع مـن الـصراع، فقـد تسـبب لـه هـذا السـقم في معانـاة عجـز عـن مداواتهـا الأطبـاء، حتـى تغـيرت ملامحـه وتبدلـت أحوالـه، فرفـع شـكواه إلى الله – سـبحانه وتعـالى – لكـي يخلصـه مـن هـذا الألم والمـرض الـذي عصـف بحياتـه، ولعلنـا نلحـظ في الأبيـات التاليـة حركـة النفـس بـين أبعـاد الألم الممـزوج بالإحبـاط والأمـل في آخـر الأبيـات الـذي يبعثـه التعلـق بـالله وترقـب حضـور الأحبـة والاشـتياق إلى رؤيتهـم، فربـما كان ذلـك ممـا يسـعف الـذات التـي بـدت قواهـا تضعـف وأركانهـا تنهـار، يقـول ابـن الجـزار واصفـاً هـذا المشـهد:

تَـوالى عَـليَّ السَـقمُ عامـاً فَحَطَنـي
عَـلى رَغـم أَنفي عَن جِـدى صحتي حِطا
وَطالَـت مُعانـاة الأُسـاة وَكُلهُـم
عَـم خابـطٌ عَشـواء في علتـي خَبطـا
فَهَـذا يَراهـا عِلـةً دَمَويَّـةً
وَهَـذا يَراهـا مَـرَةً خالَطَـت خِلطـا
يُعانيـك هَـذا ثـم إِن سـيل غَـيره
يَقـول وَإِن كانَ المُصيـب لَقـد أَخطـا
فَلَـو أَبـصَرتْ عَينـاك لَـونيَ أَغـبَراً
وَرَونَـق وَجهـي قَـد تَغَـير وَانحَطـا
وَرَأسيَ قَـد شـابَت ذَوائـب لَيلِـهِ
وَلاحَ صَبـاح الشَـيب في جَنحِـهِ وَخَطـا
لِأَبـصَرتَ مِـن مـرآيَ خَلقـاً مُشَـوَّهاً
وَأَنكَـرت مِـن مَـرآيَ أَنـزع مُشـمطا
إِلى اللهَ أَشـكو مـا دَهـاني فَقَـد عَـدا
وَأَسـأَلهُ تَعجيـل بـرءٍ فَقَـد أَبطـا
وَلمـا تَراخـى عَهـدُ أُنـسِ خِطابكُـم
وَنَكـرتِ الدُنيـا معارِفَـه شـحطا
تَطَلعـتُ مِـن أُفقـي أَشـيمُ بروقـه
وَذبـتُ اشـتِياقاً إِن تجشـمَ لي خَطـا
لَعَلـك أَن تُحيـي بِهِ نَفـس شَيـقٍ
كَـما أَحيت الأَمطار أَرضـاً بَدَت قَحطا[4]

المحور الثاني: ملامح صراع الآخر

مثـل الـصراع مـع الآخـر أو الغـير في شـعر ابـن الجـزار ظاهـرة واضحـة، إذ تجـد الكثـير مـن القصائـد تنشـأ بفعـل الـصراع الـذي نقلـه الشـاعر مـن ذاتـه إلى العـالم مـن حولـه، فقـد أدت الكثـير مـن العوامـل إلى وجـود ملامـح هـذا الـصراع في نتاجـه الشـعري، ولعـل مـن أهمهـا تلـك الملامـح التـي رأيناهـا مسـببة في وجـود ذلـك الـصراع الداخـلي الـذي كان يعتـصر ذات ابـن الجـزار ويؤثـر فيهـا، والتـي توزعـت – كـما أوضحـت – بـين جفـوة الدنيـا وإعراضهـا عنـه، والفقـر والبحـث عـن المـال، ثـم المـرض والسـقام الـذي نـال نصيبـه – أيضـاً– مـن ذات ابـن الجـزار.

وبالنظـر إلى نتـاج ابـن الجـزار الشـعري نلحـظ أنـه ربـما أسـفرت بعـض الأبيـات الشـعرية في بلـورة رؤيتـه لمفهـوم صراع الآخـر في حيـاة الإنسـان والفلسـفة

(1) ديوان ابن الجزار، ص 121 - 122.
(2) ديوان ابن الجزار، ص 129.
(3) ديوان ابن الجزار، ص 119.
(4) ديوان ابن الجزار، ص 125 - 126.

التي قد يرتكز عليها من وجهة نظره، فالصراع مهما حاولنا نفي وجوده، فهو بلا شك يبقى حقيقة حتمية بين بني البشر، ينشأ بفعل وجود قوتين أو أكثر تتصارع فيما بينها، فالثنائية إذاً هي جزء أصيل في وجوده، وهي الحد الأدنى لوجوده وقيامه، ومن ثم إذكاء اشتعاله.

وبكل تأكيد فإن الطرف الآخر من الصراع يأخذ صوراً متعددة وهيئات مختلفة، وربما كان العدو من أبرز تلك الصور التي يأتي عليها الطرف الآخر في نظرية الصراع مع الآخر ومفهومه، ولذا فإن الأبيات الآتية لابن الجزار ترسم ملامح لمفهوم صراع الآخر عنده، فهو يؤمن بوجود العدو الذي يمثل الآخر ويجعل القوة والجبروت فرصة للانتقام منه والإجهاز عليه، فيقول:

إِذا ما تَأتتْ في عَدوك فُرصَةٌ
فَثب وَانتَهزها وَثبة الضَيغم الأَشَر
وَلا تك مثل المَرء أَمهلَ لِصّهُ
لِيَنظر ما يَقضي فَنامَ وَما شعرْ
وَخاضَ جَميع اللَيل في بَحر نَومه
وَلَم يَنتبه حَتّى قَضى لَصه الوَطرْ[1]

لقد رسم ابن الجزار في الأبيات السابقة رؤيته الشخصية وفلسفته في التعامل مع البشر، وهي نظرة قائمة على فرضية وجود العدو في حياة الإنسان، فهذا الكون بطوله وعرضه يضيق بشاعرنا حتى لا يجد أمامه سوى عدوه الذي لن يرحمه إن وجد فرصة للنيل منه والوثوب عليه وثبة الضيغم المفترس، وهو بذلك يعكس جانباً مهماً لفلسفة صراع الإنسان مع أعدائه، فلا رحمة تحكم العلاقة بين الطرفين، ولا وجود للتسامح بين الجانبين، بل المبادرة السريعة للقضاء المبرم على ذلك العدو عند أول فرصة سانحة، فهذا هو الناتج الآخر من صراع الرغبات الداخلي مع الواقع المجتمعي، وهو التمرد على قيم المجتمع ومبادئه عنفاً وشدة وغلظة.

ونجد ابن الجزار في موضع آخر يؤكد مبدأ التعامل بالعنف وعدم الرحمة لكل عدو محتمل قد يعترض طريقه، فهو يصوره في هيئة الحية التي لا يؤمن مكرها، ولا ينفع معها الاستكانة والمداراة، فالسم كائن في ذاتها، والعدو كذلك، يقول ابن الجزار في ذلك:

وَإِن العَدو لكالحية الـ
ـتي كَمنَ السمُّ في ذاتها
إذا استمكنتْ لَدَغتْ وَاعتَدتْ
ولَم تَنتَفعْ بِمداراتها[2]

أما عن ملامح الصراع مع الآخر في شعر ابن الجزار فإن المجتمع بأطيافه المتعددة كان مداراً لرسم ملامح هذا النوع من الصراع، وهو أمر ليس بمستغرب على الشاعر، «فلا يستطيع أحد أن ينكر أن أي أديب لا بد وأن يستوحي مضمون أعماله من ظروف المجتمع الذي يعيش فيه، ويتأثر بأحواله وملابساته»[3].

من جانب آخر فإن المجتمع المضطرب وغير المستقر يسهم بفعل هذه الظروف في إذكاء الصراع وتأجيجه بين عناصر ذلك المجتمع وأطرافه المختلفة، فقد شهدت الأندلس في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي صراعاً مريراً بين ملوك الطوائف الذين تنازعوا حكمها وتقاتلوا من أجل ذلك، إذ شهدت الأندلس في عصرهم الكثير من النزاعات السياسية والاضطرابات المجتمعية، ولم يكن الثغر الأعلى وسرقسطة تحديداً، وهي موطن ابن الجزار، بمنأى عن تلك الأحداث.

لقد عاش مجتمع سرقسطة الكثير من الأحداث السلبية سياسياً واجتماعياً جعلت من طبقة العامة من الناس وقتئذٍ في حالة مزرية من البؤس والفقر وفرض باهض للضرائب والمكوس، في حين تنعم الطبقة الحاكمة والخاصة من علية القوم بأصناف الترف وألوان النعيم من بناء القصور وإحياء ليالي المجون، فقد كان قصر الجعفرية في سرقسطة شاهداً، بما يدور فيه، على تلك التناقضات، ويصف ابن حزم في رسالته هذا الوضع بقوله «وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه، أولها عن آخرها، محارب لله تعالى ورسوله، وساعٍ في الأرض بفساد؛ للذي ترونه عياناً من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارهم، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي ينقضون على أهلها، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل

(1) ديوان ابن الجزار، ص 83.

(2) ديوان ابن الجزار، ص 83.

(3) راغب، نبيل، 1980م، التفسير العلمي للأدب: نحو نظرية عربية جديدة، المركز الثقافي الجامعي، القاهرة، ص139.

الإسلام»[1].

فوسط هذه الصورة القاتمة للمجتمع الأندلسي حينئذٍ عاش ابن الجزار في سرقسطة، فلم يكن الحكام «إزاء شعوبهم أفضل موقفاً، ولا أكرم تصرفاً، فقد كانوا طغاة قساة على رعيتهم، يسومونهم الخسف، ويثقلون كواهلهم بالفروض والمغارم لملء خزائنهم وتحقيق ترفهم وبذخهم»[2].

لكن الأمر الغريب أن ديوان ابن الجزار لم يتضمن الكثير من قصائد نقد السلطة والحكام في سرقسطة بسبب ذلك الوضع المتأزم لحياة الإنسان وقتئذٍ، فلا نجد غير مقطوعة واحدة يظهر فيها اعتراضه ونقده لأصحاب السلطة من خلال تعرضه بالنقد لأولئك الحكام الذين كانوا يظلمون الرعية ثم ينسبون ذلك للعمال الذين يقومون بجباية الضرائب قائلاً :

نَسَبتمُ الظُلم لِعُمالكم
وَنُمتم عَن قُبح أَعمالَكُم
لا تَنسبوا الجور إِلَيهم فَما
عُمالكم إِلّا كَأَعمالكم
تاللهَ لَو حكَمتمُ ساعة
ما خَطر العَدل عَلى بالكُم[3]

وبالرغم من أن هذه المقطوعة هي الوحيدة في (ديوان ابن الجزار) إلا أنها تعبر عن شجاعته وموقفه الجريء في مواجهة الجور والظلم الذي كان يتعرض له المجتمع السرقسطي آنذاك، فقد حملت هذه المقطوعة نقداً لاذعاً للسلطة الحاكمة، إذ تجاوزت في أبعادها ومضمونها ما كان يقوم به العمال من تنفيذ مباشر لأوامر تلك السلطة الفاسدة التي بلا ريب أجرت الظلم والويلات على الشعب السرقسطي المقهور والمغلوب على أمره.

لقد تسببت الحالة المجتمعية المتردية في سرقسطة إلى هجر ابن الجزار الشعر وازدراء من ينتسب إليه عائداً إلى مهنة الجزارة التي رأى فيها ملاذاً لسد حاجته ونافذة لجلب رزقه، مما أدى إلى وجود صراع مع عدة أطراف مختلفة، يأتي في مقدمتها السلطة الحاكمة نفسها، إذ أمر ابن هود أبا الفضل ابن حسداي أن يوبخه [4]، فوجه إليه قوله:

تركتَ الشعرّ من ضعف الإصابة
وعدتَ إلى التَّحرف بالقصابة[5]

فرد عليه ابن الجزار بقصيدة طويلة مجَّد فيها مهنة القصابة موضحاً الأسباب التي دعته إلى ترك الشعر والبعد عن نظمه، منها قوله:

تَعيب عَليَّ مَألوف القَصابة
وَمَن لَم يَدرِ قَدرَ الشَيء عابَهْ
وَلَو أَحكَمت مِنها بَعض فَنٍ
لَما استبدلت مِنها بالحجابةْ
لعمرك ما تَرَكت الشَعر حَتّى
رَأَيتُ البُخل قَد أَمضى شهابهْ
لَقَد حجب النَدى المألوفُ وَجهاً
وَحَط اللُؤم عَن قَصدٍ نِقابهْ
وَصارَ الجود لَفظاً دونَ مَعنى
وَصرنا بِالمُنى نَرتادُ بابهْ
إِذا ما قيل هَذا بَحرُ جودٍ
وَرَدتُ فَلَم أَجد إِلّا سَرابه[6]

والملاحظ أن هذا التحول في مهنة ابن الجزار أصبح ساحة مشرعة لتجاذبات الصراع المجتمعي في شعره، فلم يكن الأمر معبراً فقط عن تغيير في النشاط المهني للشاعر بقدر ما هو تعبير غارق في الرمزية للتناقضات التي كان يعيشها المجتمع السرقسطي حينذاك بين حدي ثراء السلطة وفقر الشعب، فقد أحدث ذلك الأمر الكثير من التغيرات في بنية المجتمع، فلم يعد للشعر قيمة تذكر، كما أصبح أرباب المهن يعانون من قلة الدخل وضعف في الشراء، فالمجتمع كان يعاني كثيراً من الفقر والفاقة، لذا فإن ابن الجزار يعبر خلال بعض قصائده عن ذلك الصراع الذي كان يدور بينه وبين المجتمع من أجل كسب قوته والظفر بلقمة عيشه، يقول ابن الجزار في ذلك:

في قصَّتي عَجَبٌ فَاسمَع إِليّ فَما
أَتَت بِمثل حَديثي الأَعصر الأَولُ
رَأَيت قَوماً بِنَظم الشعرِ قَد وَصَلوا
إِلى المُنى وَأَنيلوا فَوقَ ما سأَلوا

(1) الأندلسي، أبو محمد علي بن حزم، 1987م، رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق: إحسان عباس، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج3، ص173.
(2) عنان ،محمد، 1997م،، دولة الإسلام في الأندلس (العصر الثاني) دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص419.
(3) ديوان ابن الجزار، ص 145 - 146.
(4) المقري، أبو العباس أحمد بن محمد، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج4،ص 152.
(5) ديوان ابن الجزار، ص 117.
(6) ديوان ابن الجزار، ص 118 - 119.

فَقُلت ما لي لَمَ أَسلك سَبيلهم
أَلَيسَ بي في القَوافي يُضرَب المَثَلُ
لَو أَن نَظم غَريب الشعر مَعرَكَةٌ
ما كانَ غَيريَ فيهِ الفارس البَطَلُ
كَم بِالقَصابة لا أَنفكّ في سَغبٍ
وَفي المَدائح عَنها لِلفَتى حِولُ
وَسوّلت لي نَفسي أَن أَقوم بِها
وَطشتُ وَالطَيشُ مَقرونٌ بِهِ الزَلَلُ
حَتّى إِذا حكتُ أَثواب المَديح إِذا
بِجود لابِسِها قَولٌ وَلا عَمَلُفَقُلتُ
وَاليَأس مستولٍ عَلى أَملي
ما كُلُ ذي أَمَلٍ يَصفو لَهُ الأَمَلُ
لَما بَدا لي أَن الشعر مسغَبَة
وَحَظُّ ناظمه الحرمان وَالبُخلُ
عَدلت عَنهُ وَقُلت المَوتُ أَيسَر مِن
تَسآل قَوم إِذا ما استُمنِحوا بخلوا
حَسبي القَصابة لا أَبغي بِها بَدَلاً
مَن قر بِالشَيء عَيناً عزهُ البَدلُ[1]

ويبرز لنا – أيضاً – بسبب الشعر ونوع المهنة ملمح آخر لتأزم الصراع مع الآخر في السياق الشعري عند ابن الجزار، لكن ذلك كان قبل إعلان ابن الجزار ترك الشعر، فقد كان هناك ملمح واضح لصراع شخصي بينه وبين أبي الحسن البرجي، أحد علماء سرقسطة، الذي كان أبوه يمتهن الفراية[2]، وتعود بداية ذلك الصراع الشخصي بينهما إلى نقد البرجي لابن الجزار لبيت قاله في مدح زهير العامري، إذ وصفه بالفتخاء التي هي صفة للمؤنث، ولا يوصف بها المذكر، وذلك في قول ابن الجزار:

لَم تَسمَع الآذانُ قَبل هِدائها
بِحَمامةٍ زُفتْ إِلى فَتخاءِ[3]

فكان هذا البيت شرارة لبداية عداوة طال أمدها بين الطرفين والتي تخللها ملامح مختلفة لأبرز صراع شخصي جرى بين ابن الجزار وأحد معاصريه، إذ ضم ديوانه الشعري الكثير من القصائد التي تعكس ملامح ذلك الصراع[4]،

(1) انظر: ديوان ابن الجزار، ص 127.
(2) انظر: ديوان ابن الجزار، ص 70.
(3) ديوان ابن الجزار، ص 66.
(4) انظر: ديوان ابن الجزار، القصائد رقم : 2، 3، 4، 5، 6، 7، 10، 11، 16، 21، 25، 29 ،30، 31، 32، 33، 34.

والحق أن النقد الذي تضمنه هذا البيت لم يكن يستحق هذا الغضب الجارف من ابن الجزار والذي ظهر بشكل واضح في أغلب نتاجه الشعري وكذلك النثري[5]، فقد جاء في صورة ثائر يحاول أن يحطم كل شيء من حوله، ففي ظني أن ذلك البيت كان القشة التي قصمت ظهر البعير، وهو كذلك الذي فجر فوهة البركان داخل ذات ابن الجزار ضد المجتمع من حوله، فكل أطراف ذلك المجتمع، بسوء أحواله، وقفت ضده وانتقصت من قدره في الشعر، ونالت من منزلته لممارسته مهنة القصابة، ولذلك وجدناه يصف ذلك بقوله:

لا بِالقَصابة أَستولي عَلى أَملي
وَلا بِشعري إِلى نَيل المُنى أَصل
مُذَبذب غَير حاظ في سَبيلهما
مثل النَعامة لا طَير وَلا جَمَل[6]

لقد أوضحت بعض الأبيات التي قالها ابن الجزار في ديوانه مدى ما يختلج في نفسه ضد مجتمعه الذي قسا عليه، ولم يرحم سوء أحواله، فبادله بتلك القسوة غلظة، وبذلك النكران جحوداً، فتأزم الوضع بينه وبين جميع أطراف مجتمعه حتى تأجج الصراع بين الطرفين ووصل إلى أقصى المراحل التي يعبر عنها قول ابن الجزار:

وَلَما صارَ أَهلُ الأَرض طُرا
ذِئاباً صرتُ مُفتَرِساً ذِئابه
فَمن لَم أَستمله بالقَوافي
وَكانَ البُخلُ بِالمَعروض دابه
نصبت للؤمه شرك احتيالي
وَصِدتُ لَهاهُ مِن باب القَصابه
ولا حَجَّ عَلى المُضطَر في أَن
يُصرف في تَخلصه خِلابه[7]

إن ملامح الصراع الشخصي الذي دار بين ابن الجزار والبرجي تمحورت في كم هائل من أبيات الهجاء[8]، التي قالها ابن الجزار في ذم البرجي، والتي «نمت على شخصيته العنيفة الهائجة الغاضبة التي

(5) انظر: ديوان ابن الجزار، ص 76-105.
(6) انظر: ديوان ابن الجزار، ص 128.
(7) انظر: ديوان ابن الجزار، ص 120.
(8) يُقدر عدد القصائد التي قيلت في هجاء البرجي بثلث الديوان تقريباً، كما أن أطول قصائده كانت - أيضاً - في هجاء البرجي، انظر: ابن الجزار، يحيى، 2003م، ديوان ابن الجزار السرقسطي الأندلسي، تقديم وتحقيق: العربي سالم الشريف، ط1، دار شموع الثقافة، ليبيا، ص 21-22.

تشتعل النيران بين أرجائها»[1] والتي حاول فيها ابن الجزار – أيضاً – أن يعلي من مكانته في مجال الشعر؛ رداً على من انتقص من مكانته الشعرية، فلا شك أن مثل هذا الصراع بقدر تأثيره في نفس الشاعر إلا أنه مدعاة لتجويد شعره وتنقيحه، من ذلك قوله:

أَتنقد أَشعاري وَتَرقبُ عَثرَتي
وَأَقربُ مِن هَذا إِلَيكَ الكَواكبُ
أَلَم تَدرِ أَني يا عَليُّ مهندٌ
بِهِ مِن شَبا الهنديّ تَفري المَضاربُ
وَإِن عَفاريت القَصائد مُرَّدٌ
لَها أَسهم في كُل غَيبٍ صَوائبُ
أَمير القَوافي بَينَ فَكيَّ آمِرٌ
إِذا شئت لَم يَحجبه عَنيَ حاجِبُ
أَيا صَيرفيَّ الشعر هَذا نضارُنا
وَهَذي عذارانا فَهَل أَنتَ خاطبُ
وَيا ابن العَميدِ المُنتَضي سَيفَ نَقده
إِلَيكَ طُلى شعري فَهَل أَنتَ ضاربُ
وَيا جَعسويه احسِ الَّذي قَد سَقَيتَنا
فَمثلك حاسٍ ما سَقاه وَشاربُ
أَإِن صَحَ بالفَتخاء تَشبيهنا الفَتى
زُهَيراً بَدَت في النَقد منكَ غَرائِبُ
أَما أَنَّهُ لَولا الحَياءُ وَأَنَّني
بخيميَ عَن سُبلِ المثالب ناكبُ
لَأَرسلت مِن شؤبوب نُطقي صَواعِقاً
عَلَيك بِأَفكاري لَهن سَحائبُ
سِهام قَوافٍ لَو لثهلانَ فَوقَت
لَهُدت بِها مِنهُ الذُرى وَالمَناكبُ
وَلَكِنَّني أَغضي حَياءً مِن العلا
وَأَصفو وَإِن لَم تَصفُ منكَ المَشاربُ[2]

كما حاول في أبيات متعددة الإيحاء بوجود صراع بين أرباب المهن في عصره؛ سعياً وراء كسب العيش في عصر ساده العوز والفقر، فأخذ ينتقص من مهنة الفرائين التي كانت يمتهنها والد البرجي، ويصفهم بالتدليس والخداع في الكثير من أبياته الشعرية، من ذلك:

أَلَستُم بِتَدليس الفِراء عُرفتُمُ
وَذَلك ظلم لَيسَ يَعدله ظُلمُ
تَبيعونَها مِن جاهلين بِأَمرِها
مَزوقة مَحسومة ما لَها رَسمُ[3]

إن من يتأمل الأبيات التي يصف فيها ابن الجزار مهنة القصابة، يجد أنه يحاول أن ينقلنا فعلياً إلى ساحة صراع حقيقية تختلط فيها الدماء وتتطاير فيها الرؤوس، فقد غلبت مقتضيات مهنة القصابة على فكره حتى أصبح شعره مرآة لفكره وترجمة لمشاعره، فأخذ يباهي ويفاخر بتلك المهنة أمام بقية المهن الأخرى، عبر تصوير مشاهد دموية عنيفة، لكنها حقيقية تصف تماماً أعمال الجزارين وأدواتهم من الشفار والسواطير، من ذلك قوله:

صَفَعنا بالشفار قَفاه حَتّى
فَريناهُ وَمَزَقنا إهابه
وَلَم نُقلع عَن الثَوريّ حتّى
مَزَجنا بِالدَّم القاني لُعابه
إِذا ما لانَ عود الناس يَوماً
وَخَرَّ فَعودنا فيهِ صَلابه
نُريق دَماً وَلا حرج عَلَينا
وَمَن نَقتلهُ لا نَخشى عِقابه
وَيبرز واحِدٌ مِنا لِأَلفٍ
فَيفنيهم وَتلك مِن الغَرابه
وَمَن يَغتَر مِنهُم بِامتِناعٍ
فَإِن إِلى سَواطِرنا إِيابه[4]

وتنتقل دائرة الصراع مع الآخر في شعر ابن الجزار لتشمل ملامح من الصراع الفكري الذي شهده عصر ملوك الطوائف، إذ تمثل ذلك في رد ابن الجزار شعراً على ابن غرسية الذي كتب رسالة فضّل فيها العجم وذم العرب، فانبرى للرد عليها كثير من كتاب ذلك العصر وأدبائه[5]، وقد أظهر ابن الجزار في أبيات تلك القصيدة روحه الثائرة في وجه الكفر، ونفسه الطامحة إلى وأد المفسد، محفزاً أبناء مجتمعه للخلاص من أتون الفتنة التي أطلت برأسها بفعل رسالة عنصرية، كتبها حاقد جاحد على الإسلام وأهله، يقول ابن الجزار في هذه

(1) السيد، نجوان، 2003م، الجزار السرقسطي: حياته وأدبه، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة - كلية دار العلوم، بإشراف: الطاهر أحمد مكي، ص 69.
(2) ديوان ابن الجزار، ص 74 - 75.
(3) ديوان ابن الجزار، ص 90.
(4) ديوان ابن الجزار، ص 118 - 119.
(5) انظر: الرسالة وردود كتاب الأندلس عليها، الشنتريني، أبو الحسن علي بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثالث، المجلد الثاني، ص705-755.

القصيدة:

يا مُفتياً بِانتِفاض الشَرع أَعصاراً
إِن كُنت ريحاً فَقَد لاقَيتَ إِعصارا
أَو كُنت سَيلاً فَقَد لُقّيت ذا لَجَجٍ
مُغطمطاً طامحَ الأَمواج زخارا
إِن رمت وَقع عِتابٍ مِنهُ مُنبَثِقٍ
لاقيت مِن مده الوقاعِ تَيارا
طوفانه إِن طَما لَم يبقِ فائضه
مِن شيعة الكُفر فَوقَ الأَرض ديارا
كَفاجِرٍ مِنهُم في أَرض دانِيَةٍ
قَد أَظهَر الكُفر فيها اليَوم إِظهارا
يا للحنيفيّ مِمّا حَلَّ ما لَكُم
لا تُنكِرون خِلاف الشَرع إِنكارا
هَذا ابن غَرسية مِن لاردةٍ لهجٌ
بِكُل كُفرٍ صَريحٍ يورد النارا
وَلا مَقام عَلى هَذا لِمُحتَسِبٍ
يَقوم للهِّ إِعلاناً وَإِسرارا
فحذروا الناس مِن روميٍّ مَذهبه
وَلا يُرى أَحَدٌ مِنكُم لَهُ جاري
إِنا نَرى الآن هَذا الدين نَخذله
وَنَحنُ كُنا لَهُ مِن قَبل أَنصارا[1]

أما الصراع الحربي مع الآخر فقد كان حاضر الملامح في شعر ابن الجزار، فمن المعلوم أن عصر ملوك الطوائف، في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي الذي عاش فيه ابن الجزار، كان حافلاً بالأحداث والحروب والصراعات بين المسلمين والنصارى، لقد صورت مقطوعتان في ديوان ابن الجزار حالة من الصراع الحربي العنيف الذي ظهر فيه ابن الجزار في صورة البطل المغوار والمقاتل الذي لا يُشق له غبار، لكن تلك المقطوعتين لم تحملا في مضمونهما أي إشارة إلى نوع المعركة وطبيعتها ومن هو طرفها الآخر، وربما يعود تفسير هذه الظاهرة – في ظل علمنا بأن ابن الجزار لم يُعرف عنه أن شارك في خوض المعارك – إلى أمرين، الأول محاولة ابن الجزار بث روح الحماس في مجتمعه واستنهاض الهمم؛ لمواجهة المد المسيحي، وربما كان الأمر الآخر يعود إلى وقوعه تحت تأثير تداعيات مهنة القصابة التي كانت قد هيمنت على فكره[2]، يقول ابن الجزار في المقطوعة الأولى:

وَإِن نَحنُ نازَلنا الكَتائب أَدبَرت
وَطارَت ميامينا عَلَينا طُيورها
تَقاسمهم أَسيافنا شر قَسمةٍ
فَفينا غَواشيهم وَفيها صُدورَها[3]

ويقول في المقطوعة الثانية:

فمنا أَسودٌ ضارِيات عَوابس
قُروم كِرام الراحتين فحولُ
إِذا نَحنُ رَوينا الصَوارم مِن دَم
فَتلك دِماءٌ ما لَهن دُحولُ
وَلَسنا نهابُ الجَمع عِندَ لِقائه
سواء كَثير عِندَنا وَقَليلُ
وَأَسيافُنا تَندى وَما كُل ساعة
عَلَيها النُفوس الجامِدات تَسيلُ
مُعَودةً أَن لا تَسيل نصالها
فَتَعمدَ حَتّى تُستَباح قَبيلُ
إِذا قَصرت في الحَرب بِالباسل الخُطا
فَإِن خُطانا في الحُروب تَطولُ[4]

أما وصف ابن الجزار لملامح الصراع الحربي الحقيقي والواقعي مع الآخر في شعره، والمتمثل في الصراع الإسلامي المسيحي على أرض الأندلس ولاسيما فيما يتعلق بمدينة سرقسطة، فإن تلك الملامح لم تظهر بشكل يتواءم مع طبيعة ذلك الصراع المرير بين الطرفين، كما أن النفس الثائرة التي رأيناها عند ابن الجزار في ملامح أخرى للصراع مع الآخر لم تكن حاضرة في تلك القصيدة الوحيدة التي قالها في وصف طبيعة ذلك الصراع، وربما كان مرد ذلك إلى جملة الانكسارات التي تعرض لها المجتمع السرقسطي في تلك المواجهات العقدية بين الجانبين المسلم والمسيحي، ولذلك نجد أن ابن الجزار في هذه القصيدة يؤكد على التسليم بقضاء الله وقدره ومواجهة ذلك بكل روح مطمئنة، موجهاً خطابه لأحد الأشخاص كان قد فر من سرقسطة هارباً، مبدياً نيته لأداء فريضة الحج، لكنه عاد إلى سرقسطة جزعاً بعد أن رأى أهوال البحر، يقول ابن الجزار في ذلك:

(1) ديوان ابن الجزار، ص 128 - 129.
(2) السيد، نجوان، الجزار السرقسطي: حياته وأدبه، ص 140.
(3) ديوان ابن الجزار، ص 92.
(4) ديوان ابن الجزار، ص 92.

يـا مَـن يَفـر مِـن القَضـاء بِنَفسـه
هَيهـات مِـن لمقيـدٍ بِفـرارِ
تَبغـى النَّجـاة لَهـا مِـن الدُّنيـا وَهَـل
يَنجـو قَنيـصٌ مِـن مخالـب ضـاري
سر حَيث شئت وَكَيفَ شئت فَإِنَّما
تَطـوى المَراحـلَ في يَـد الأَقـدارِ
أتفـر مَذعـوراً كَأَنـكَ خالِـدٌ
وَكَأن ثَـوب العُمـر غَـيرُ مُعـارِ
وَتُواصـلُ الأَمـر البَعيـد كَأن عمـ
ـرك نـامَ عَنـهُ قاطـعُ الأَعمـارِ
مَـن فَـرَّ مِـن قَـدَرٍ فَلَيـسَ فِـراره
إِلّا عَـلى قَـدر عَلَيـهِ جـاري
أَزَمعـت حجـاً دونَـهُ لُجَـجٌ طمـت
وَتَرَكت حجّـك عِنـدَ بـاب الـدارِ[1]

ثـم نجـد ابـن الجـزار بعـد ذلـك فيـما تبقـى مـن القصيـدة يـدرك مثـل غـيره مـن «شـعراء الأندلـس في تلـك الحقبـة أنهـم بحكـم انتمائهـم إلى ذلـك المجتمـع، وإحساسـهم الشـديد بقضايـاه، وبآثـار المأسـاة ونتائجهـا، أدركـوا أن الكلمـة الخالـدة، هـي التي تـؤدي دورهـا داخـل المعركـة، وليس خارجهـا، وهـي التـي تتصـدى لـكل شيء يريـد المسـاس بالوطـن، والمقدسـات الإسـلامية، والمثـل والقيـم التي تؤمـن بهـا الأمـة»[2]؛ ولـذا حـاول ابـن الجـزار من هـذا المنطلـق أن يرفـع معنويـات مجتمعـه في مواجهـة هـذا الـصراع المريـر مـع نصـارى إسـبانيا في حـروب الاسـترداد، مؤكـداً البقـاء والمواجهـة الحتميـة، فالمـوت دفاعـاً عـن الأرض والوطـن غايـة سـامية يسـعى لنيلهـا والحصـول عليهـا، فيقـول في ذلـك:

لا أَبتغـي بَعـد المواطـن عيشَـةً
تـركُ المواطـن محنـة الأَحـرارِ
وَالبَحـر أَصعَـبُ ميتـةً لغريقـه
مِـن ميتـة بِعَوامـل وَشـفارِ
وَأَحـق مَـن نـالَ الشَـهادة مَقصـد
بالمشرفيـة وَالقَنـا الخطـارِ
أَولَيسَ أَفَـلَ أَن أَمـوت مُجاهِـداً
مـن أَن أَموت لقىً غَريقَ بحارِ[3]

تلـك كانـت أبـرز ملامـح الـصراع مـع الآخـر في شـعر ابـن الجـزار، والتـي نشـأت بفعـل نزاعـات شـخصية بـين ابـن الجـزار والفـراء البرجـي، لكـن الأهـم في ذلـك كان في تلـك الملامـح التـي نشـأت بفعـل تجاذبـات المجتمـع السرقسـطي دينيـاً وسياسـياً واجتماعيـاً وفكريـاً و اقتصاديـاً وعرقيـاً.

الخاتمة

بعـد اسـتعراض الملامـح الرئيسـة للـصراع بشـقيه في شـعر ابـن الجـزار، يمكـن أن نسـتخلص مـا خـرج بـه هـذا البحـث مـن نتائـج في النقـاط الآتيـة:

- وفقـاً للملامـح المختلفـة التـي اسـتعرضها البحـث، فإنـه يمكـن القـول بـأن الـصراع يمثـل ظاهـرة في شـعر ابـن الجـزار السرقسـطي، وكانـت - في رأيـي - جديـرة بالبحـث والدراسـة.
- تمحـور اسـتعراض ظاهـرة الـصراع في هـذا البحث عنـد ابـن الجـزار عـبر جزأيـن همـا: الـصراع الـذاتي والـصراع مـع الآخـر، وقـد جـاء الـصراع الـذاتي بسـبب مجموعـة مـن العوامـل والبواعـث، كان من أهمهـا معاناتـه مـع الحيـاة وإعـراض الدنيـا عنـه، والفقـر ومحاولـة كسـب المـال في زمـن شـحيح، وأخـيراً بسـبب المـرض والسـقام الـذي أصابـه.
- أمـا الـصراع مـع الآخـر فقـد جـاء في عـدد مـن الملامـح توزعـت بـين الـصراع الشـخصي والمجتمعـي والفكـري والسـياسي، إذ أسـهمت مجموعـة مـن العوامـل والبواعـث في وجـوده، منهـا تلـك العوامـل التـي تسـببت في صراعـه الـذاتي، إضافـة إلى ظـروف مجتمعـه، وقولـه الشـعر ثـم تركـه، ثـم مهنـة القصابـة التـي كانـت مصـدر رزقـه.
- عكسـت ظاهـرة الـصراع في شـعر ابـن الجـزار بعـض الأبعـاد في شـخصيته لاسـيما في ظـل عـدم وجـود ترجمـة وافيـة لحياتـه في المصـادر الأندلسـية، كـما أسـهم الكشـف عـن ملامـح الـصراع في شـعره عـن أبعـاد مختلفـة لمجتمعـه والعـصر الـذي عـاش فيـه.
- هـدف البحـث إلى كشـف ملامـح الـصراع في شـعر ابـن الجـزار، ولـذا فـإن الموضـوع يحتـاج

(1) ديوان ابن الجزار، ص 132.
(2) الطرايسي، أحمد، 1981م، الأصوات النضالية والانهزامية في الشعر الأندلسي، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد 12، العدد1، ص 133.
(3) ديوان ابن الجزار، ص 132.

مزيداً من الدراسة في هذا الجانب، ولاسيما في مجال الصورة الفنية وتحليل أبعادها المضمونية، إضافة إلى دراسة فنية تتعلق بدلالات الألفاظ، والجمل، والتركيب، وكذلك الإيقاع الداخلي والخارجي لظاهرة الصراع عند ابن الجزار، ولعل ذلك يكون أفضل وأتم لو جاء في صورة رسالة علمية.

- من خلال الوقوف على ملامح الصراع بشقيه في شعر ابن الجزار ظهر أن هناك موضوعات في شعره جديرة بالدراسة والبحث، لعل من أهمها دراسة موضوع الهجاء عنده ؛ لكونه أكثر الموضوعات إنتاجاً في شعره، ويمكن إجراء دراسة مقارنة مع أبرز معاصريه، مثل: السميسر (تـ 484هـ) وابن سارة الشنتريني (تـ 517هـ)، كما أن دراسة الأبعاد الاجتماعية في شعر ابن الجزار جديرة بالاهتمام.

المراجع

الأندلسي، أبو الحسن نور الدين بن علي. 1993م. المُغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، ط4، دار المعارف، القاهرة.

الأندلسي، أبو محمد علي بن حزم. 1987م. رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق: إحسان عباس، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

التجيبي، أبو بحر صفوان بن إدريس. 1980م. زاد المسافر وغرة الأدب السافر، تحقيق: عبدالقادر محداد، دار الرائد، بيروت.

راغب، نبيل. 1980م. التفسير العلمي للأدب: نحو نظرية عربية جديدة، المركز الثقافي الجامعي، القاهرة.

السرقسطي، أبو بكر يحيى ابن الحزار. 2003م. ديوان ابن الجزار السرقسطي الأندلسي، تقديم وتحقيق: العربي سالم الشريف، ط1، دار شموع الثقافة، ليبيا.

السرقسطي، أبو بكر يحيى ابن الحزار. 2008م. ديوان ابن الجزار (روضة المَحاسن وعمدة المُحاسن)، دراسة وتحقيق: منجد مصطفى بهجت، ط1، عالم الكتب الحديث، الأردن.

السيد، نجوان. 2003م. الجزار السرقسطي: حياته وأدبه، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة – كلية دار العلوم، بإشراف: الطاهر أحمد مكي.

الشنتريني، أبو الحسن علي بن بسام. 1997م. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

الطرايسي، أحمد. 1981م. الأصوات النضالية والانهزامية في الشعر الأندلسي، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد 12، العدد1.

عنان، محمد. 1997م. دولة الإسلام في الأندلس (العصر الثاني) دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة.

فروخ، عمر. 1982م. تاريخ الأدب العربي، ط4، دار العلم للملايين، بيروت.

المقري، أبو العباس أحمد بن محمد. 1988م. نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

المناعي، مبروك. 1998م. الشعر والمال: بحث في آليات الإبداع الشعري عند العرب من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث، ط1 منشورات كلية الآداب منوبة ودار الغرب الإسلامي، تونس ، بيروت.

Shavelson, R. J., Hubner, J. J. and Stanton, G. C. 1976. Self concept validation of construct interpretations. Review of Educational Research. 46 (3): 407-441

The Features of Conflict in Ibn Aljazzar Al-Sarqusti's Poetry (D 480H)

Saeed bin Musfer Almalki

Faculty of Arts & Humanities, King Abdul-Aziz University
Jeddah, Kingdom of Saudi Arabia

ABSTRACT

The works of Ibn Aljazzar Al-Sarqusti have not been the focus of many studies recently. Few are the endeavors to uncover the innovatory side of his poetry. In fact, critics have almost neglected his poetry oeuvre, paying little attention to the various issues pertaining to its form and content. This study, therefore, in an attempt to shed some light on what has for long been on the margin of current critiques, probes a key theme to Ibn Aljazzar's and his contemporaries' texts. The paper tackles the features of conflict as a pivotal thematic element in the poetry of Ibn Aljazzar Al-Sarqusti. It includes an introduction, two major parts and a conclusion. The first part of the paper discusses the elements of internal conflict while the second deals with the manifestations of conflict with the other in Ibn Alazzar's poetry. Furthermore, the paper analyzes the causes and factors what contributed to conflict in his texts.

The study concludes that conflict, in both of its forms, in Ibn Aljazzar Al-Sarqusti's poetry is a significant phenomenon caused by a number of personal, social, intellectual, and political factors which played an important role in bringing it to the foreground of his poems. Furthermore, the study reveals new, previously unexplored aspects and details of the poet's life.

Key Words: Al-Sarqusti, conflict, features, Ibn Aljazzar, poetry.